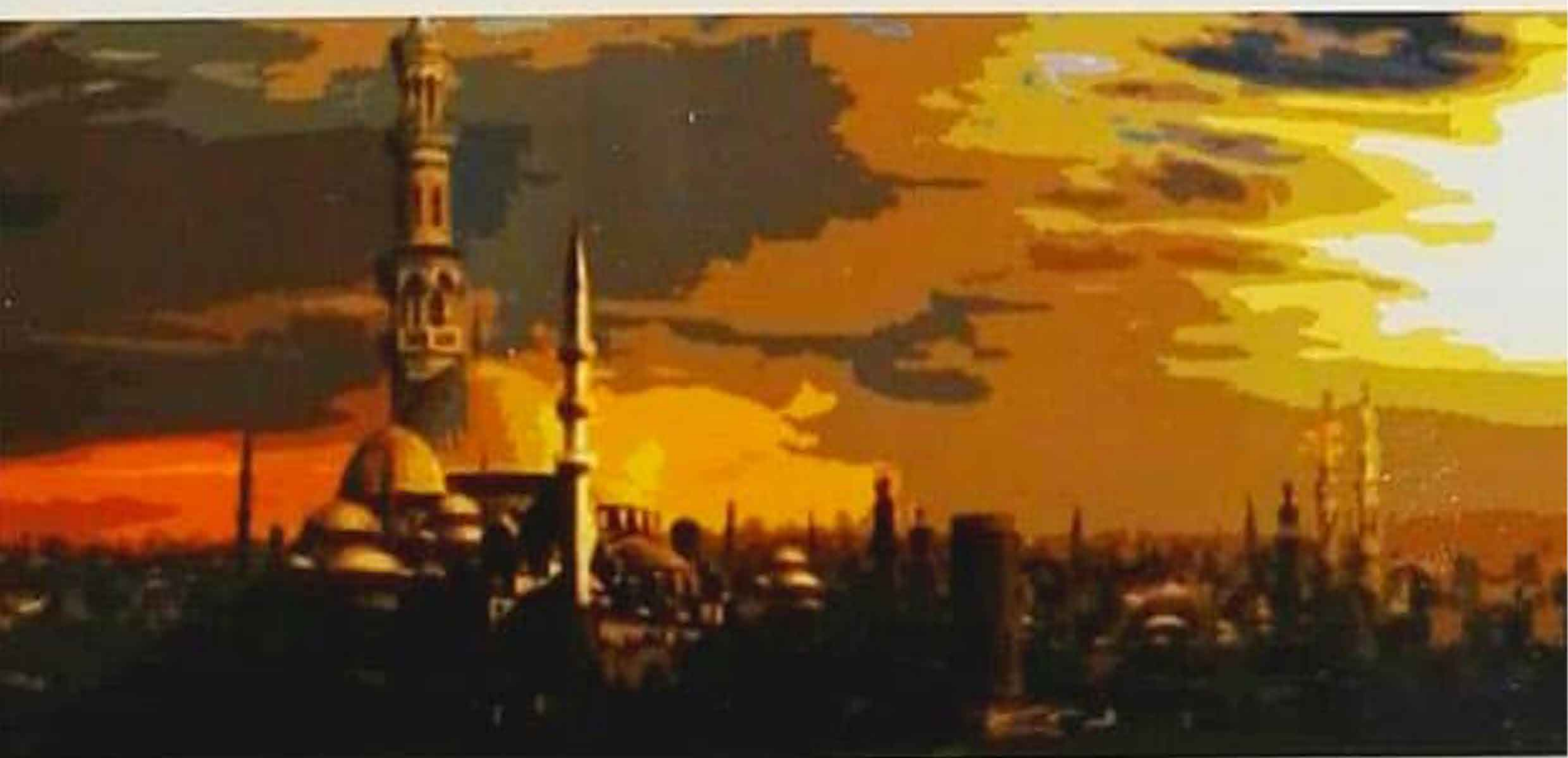
TAKWEEN
للدراسات والأبحاث

محاسن الإسلام

نظرات منهجية



أحمد بن يوسف السيد

فهرس الموضوعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل على نبيه ﷺ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وصلِّ اللَّهُمَّ ربنا وسلِّم على عبدك ورسولك محمدٍ وعلى آله وصحبه، **أمّا بعد:**

فإنّ «من طلب شيئاً بَعُدت شُقّته لا بد تلحقه مشقته؛ فلا بدّ له من معرفته ومعرفة منافعه؛ ليحمله ذلك على تحمّل المشقة وقطع الشُّقة.. فهذا حملني عند ضَعفي وكِبَر سنّي على أن أتفحّص من محاسن الإسلام والشرائع، فأُبرزَ في كلِّ أمرٍ مشروعٍ مِن سرٍّ حَسَنٍ مطبوع، على وجهٍ يرضاهُ مَن دانَ الإسلامَ إذا أنصف مِن عقلِه ولم يَظهَر العنادُ من فعله وقوله»(١).

بهذه الجملة قدّم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمٰن البخاري (ت٥٤٦هـ) كتابه «محاسن الإسلام وشرائع الإسلام».

وهو يتحدث هنا عن الأثرِ الحسنِ لذِكْر محاسن

(١) محاسن الإسلام وشرائع الإسلام (ص٣) باختصار.

الإسلام على المسلمين أنفسهم؛ لِمَا ذكره من أنّ من سار في طريقٍ طويلٍ شاقٍ فإنّه يحتاج إلى أن يعرف منافع سلوك هذا الطريق لكي يتحمّل المشقة.

ولا تقِلُّ مخاطبةُ غير المسلمين بمحاسن الإسلام أهميّةً عن مخاطبة المسلمين بها، فإنّ غير المسلمين إذا عرفوا محاسن هذا الدين الذي يُدعَون إليه، ورأوا عظمته وأدركوا بهاءَه وتميّزَه وخصائصَه العظيمة، فإنّهم يدخلون فيه محبين مقتنعين مسارعين، إلّا مَن منعه هواه.

ونحن اليوم نعيش صراعاً في الأفكار والثقافات والأديان، وانفتاحاً في سوق الأفكار، فالبضائع الفكرية تُقدَّم وتُعرَض ويُدعى لها بكل وسائل الدعوة والتسويق، حتى صار بعض المسلمين يقع في نفسه شيءٌ من الحرج أو الشك أو الحيرة تُجاه بعض الأحكام الشرعية، لذا؛ كانت الحاجة الآن ماسّة إلى الحديث عن محاسن الإسلام.

مناهج المؤلّفين في تناول موضوع محاسن الإسلام

قبل أن أبدأ بالنظرات والقضايا المنهجيّة المتعلقة بمحاسن الإسلام، أُشير ـ على وجه الاختصار ـ إلى مناهج الكتّابِ والباحثين في تناول موضوع محاسن الإسلام، فإنّ مسالك مَن كتَبَ في هذا الباب متعددة متنوعة، **ومن أهمها ما يلي:**

المسلك الأول: تناول محاسن الإسلام على طريقة أبواب الفقه:

وممّن سار على ذلك الإمام أبو بكر محمدُ بن علي القفّالُ رحمه الله (ت٣٦٥هـ) في كتابه «محاسن الشريعة»، فنجدُ أنّه تناول: (باب ذكر ما يوجب طهارة الوضوء، باب ذكر ما يوجب طهارة الاغتسال، باب ذكر المسح على الخفين، باب ذكر طهارة التيمم، باب ذكر النجاسات... إلخ، ثم كتاب الجنائز: باب ما يُعمل به في الموتى قبل الغسل، ثم كتاب

الحج، ثم الزكاة، ثم الطعام، والشراب، واللباس، والزينة، والأيمان، والكفارات. . . إلخ).

وأيُّ دارسٍ للفقه يرى التطابق بين عناوين هذه الأبواب وعناوين كتب الفقه، غير أن هذا كتابٌ في المحاسن والمقاصد.

وممّن سار على ذلك أيضاً: عبد الله محمّد بن عبد الرحمٰن البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٥٤٦هـ) في كتابه «محاسن الإسلام وشرائع الإسلام»، فقد صنّفه على مواضيع كتب الفقه، فذكر: (كتاب الوديعة ومحاسنها، كتاب البيوع ومحاسنه، كتاب الصلح ومحاسنه، كتاب الدعوى ومحاسنها، كتاب الإجارات ومحاسنها، كتاب الوكالة والكفالة ومحاسنها، كتاب الهبة، كتاب الوصايا، كتاب الأشربة، كتاب الشهادات، محاسن القضاء. . . إلخ).

ومما يُلاحظ على ما كُتِب في هذا المسلك أنه لا يتناول محاسن الشريعة الكلية، بل يركز على محاسن الفروع.

المسلك الثاني: العرض الشمولي لمحاسن الإسلام:

والمقصود بهذا المسلك: تناول محاسن شرائع الإسلام وعقائده وأخلاقه دون اكتفاء بالتشريعات العملية وحدها، وممّن كتب في ذلك من المعاصرين الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت١٣٧٦هـ) في كتابه «الدرة المختصرة في

محاسن الدين الإسلامي»، لكنَّ هذا الكتاب ليس فيه القوّة الاستدلالية القاطعة لتشكيكات المشككين، بل هو عرضٌ للموضوعِ بصورةٍ سهلةٍ ميسّرة، نافعة للمبتدئين في القراءة وصغار السنّ، فهو كتاب يحسن أن يُربَّى عليه النشء في الحلقات القرآنية ونحوها.

وقد بيّن الشيخ ابن سعدي في بداية كتابه: الثمرات التي تترتّب على الحديث عن محاسن الإسلام، منوّعاً فيها بين ما يرجع إلى المسلمين وما يرجع إلى غيرهم، وذكر أن الحديث عن محاسن الإسلام من أكبر أبواب الدعوة إلى الإسلام دون الحاجة إلى إبطال شُبه المخالفين؛ فهو في نفسه يدفع كل شبهة تعارضه.

المسلك الثالث: إبراز محاسن الإسلام في جانبٍ معيّن من جوانبه التشريعية أو الأخلاقية أو الاعتقادية:

ومن المؤلفات في ذلك:

الجانب الاخلاقي: كتب فيه الدكتور محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت١٣٧٧هـ) كتابه «دستور الأخلاق في القرآن»، وقد تناول فيه النظرية الأخلاقية الإسلامية بشكل عام، وقارنها ببعض النظريات الأخلاقية الفلسفية الأخرى، وفي آخر الكتاب أفرد آيات القرآن التي تشكّل المنظومة الأخلاقية الإسلامية.

الجانب الاعتقادي: كتب فيه الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله (ت١٤٣٠هـ) في (جمالية الدين، معارج القلب إلى حياة الروح) وهذا الكتاب من أفضل ما كُتِب في محاسن اعتقادات الإسلام، بل هو - في رأيي - من أفضل ما كُتِب في محاسن الإسلام بوجه عام، وقد تناول في هذا الكتاب جماليات التوحيد، وجمالية مفهوم الإلٰه في القرآن واللغة، والعلاقة التي تحكم تعبّدَ الإنسان لخالقه سبحانه، وجمالية التعريف القرآني بالله سبحانه، وجمالية عقيدة اليوم الآخر والإيمان بالغيب والموت والحياة الآخرة. . .الخ.

وهناك أيضاً رسالةٌ مختصرةٌ نافعة للدكتور أحمد بن عثمان المزيد بعنوان «محاسن العقيدة الإسلامية».

الجانب التشريعي: وأعني به جانب الأحكام العملية التي اصطُلح على تسميتها بـ(أبواب الفقه) وفيه الكتابان اللذان أشرتُ إليهما سابقاً: كتاب القفال، وكتاب البخاري.

المسلك الرابع: الكتابة عن محاسن الإسلام مقارنة بغيره من الديانات أو الأفكار المعاصرة، في عموم الأبواب أو في جانب معين:

ومن أبرز من كتب في ذلك علي عزت بيجوفيتش رحمه الله (ت١٤٢٤هـ) في كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب». ومن الكتب المشهورة أيضاً في هذا المجال كتاب أبي الحسن

الندوي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت١٤٢٠هـ): «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، وهو وإن لم يكن صريحاً في محاسن الإسلام إلا أنه حرص فيه على المقارنة بين الإسلام وبين الجاهلية في زمنها القديم والحديث.

وقد كتب محمد سعيد البوطي: «المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني».

وختاماً؛ فإنني لم أجد من تناول هذا الباب بصورة تأصيلية تعين على تكوين نظرة منهجية شمولية يُتوَصّل بها إلى حِجَاج المخالفين على وجه متين، ولذلك فإني سأركّز على الأصولِ والكليّاتِ التي يُنطَلق منها إلى الحديث عن محاسن الإسلام، فلن أستعرض في هذا الكتاب المحاسن التفصيلية للطهارة والصلاة والنكاح والطلاق وسائر الأحكام الشرعية، كما أنّي لن أستعرض تفاصيل الأمور الاعتقادية في الإسلام ومحاسنها ـ وقد أعرّج على شيءٍ من ذلك ـ فالعرضُ في هذا الكتاب ليس استقصائيّاً للمحاسن، وإنما هو نظراتٌ وقضايا منهجيّة يُتوصَّلُ بها إلى إحكامِ الحديثِ عن محاسن الإسلام.. والله المستعان.

(القضيّة المنهجيّة الأولى)

النظرة الكلية للإنسان والكون والوجود

إنَّ هذا الدينَ العظيمَ لا تُفهم محاسنه، ولا يُتوصّل إلى جماليّاته، إلّا بإدراكِ نظرتِه الكليّة للكون وللوجود، وللدنيا والآخرة، وللإنسان وما وراء وجوده على هذه الأرض.

وإذا تأملتَ كثيراً مما يُثار من الاستشكالات والاعتراضات ضدّ أحكام الشريعة فستجد أنها منبعثة من تجزئة النظر إلى الإنسان أو إلى الحياة والوجود، وناشئة من عدم فهم التكامل المُراعى في تشريعات الإسلام والذي يتجاوز إطار المادة الضيق.

إن الله حين شرع للناس خمس صلوات في اليوم والليلة، وأمرهم بأداء الصدقة للفقراء، وفرض عليهم الإمساك عن الطعام في رمضان، وكتب عليهم الحجّ إلى مكة، لم يشرع هذه الأعمال لتكون حِزمة من الواجبات يؤديها الإنسان

دون إدراك لما تحققه من مقاصد وغايات وحِكَم عظيمة مرتبطة بعلاقة الإنسان بربّه سبحانه، ألم يقل الله سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]؛ أي: لتذكُرني فيها؟[١]، فالمسلمون يقيمون الصلاة ليتذكّروا الله جلَّ وعلا[٢]، وهكذا قال النبي ﷺ في الحج: «**إنما جُعل الطواف بالكعبة، وبين الصفا والمروة، ورمي الجمار؛ لإقامة ذِكْر الله**»[٣].

وتأمّلوا معي هذا الكلام الكاشف عن عمق هذه القضية المنهجية[٤]:

«إنّ الإسلام وهو يتولى تنظيم الحياة الإنسانية جميعاً لم يُعالج نواحيها المختلفةِ جُزافاً، ولم يتناولها أجزاء وتفاريق، ذلك أنّ له تصوّراً كليّاً متكاملاً عن الألوهية والكون والحياة والإنسان، يَردّ إليه كافة الفروع والتفصيلات، ويَربط إليه نظريّاته جميعاً، وتشريعاته وحدوده وعباداته ومعاملاته، فيَصدر فيها كلّها عن هذا التصور الشامل المتكامل، ولا يرتجل الرأي لكلّ حالة، ولا يعالج كل مشكلة وحدها في عزلة عن سائر المشكلات.

ومعرفةُ هذا التصور الكليّ عن الإسلام تيسّر للباحث

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٣٣).

(٢) الطريق إلى القرآن، لإبراهيم السكران (ص٩١).

(٣) أخرجه أبو داود (١٨٨٨)، والترمذي (٩٠٢) وقال: حسنٌ صحيح.

(٤) من كتاب: العدالة الاجتماعيّة في الإسلام، لسيّد قطب (ص٢٠).

فيه فَهم أصولِه وقواعدِه، وتسهّل عليه أن يردّ الجزئيات إلى الكليات، وأن يتتبّعَ في لذّةٍ وعمقٍ خطوطَه واتجاهاتَه، ويَلحظَ أنها متشابكةٌ متكاملة، وأنها كلٌّ لا يتجزّأ، وأنها لا تعمل عملاً مثمراً للحياة إلّا وهي متكاملة الأجزاء والاتجاهات. . . . وطريقُ الباحثِ في الإسلام أن يتبيّن أوّلاً تصورَه الشاملَ عن الألوهية والكون والحياة والإنسان قبل أن يبحث عن رأيه في الحُكمِ، أو رأيِه في المالِ، أو رأيِه في علاقاتِ الأمم والأفراد، فإنّما هذه فروعٌ تصدر عن ذلك التصوّرِ الكليّ ولا تُفهم بدونه فهماً صحيحاً عميقاً» ثم نبّه إلى المصدر الصحيح لاستقاء هذه النظرة الشمولية فقال: «والتصوّر الإسلاميّ الصحيح لا يُلتمس عند ابنِ رشد أو عند ابنِ سينا أو الفارابي وأمثالِهم ممّن يُطلق عليهم وصف (فلاسفة الإسلام)، ففلسفة هؤلاء إنما هي ظِلالٌ للفلسفةِ الإغريقية، غريبةٌ في روحها عن روح الإسلام، وللإسلام تصوّره الأصيل الكامل، يُلتمس في أصولِه الصحيحة، القرآنِ والحديثِ وفي سيرةِ رسولِه ﷺ وسننِه العمليّة، وهذه الأصولُ هي حَسْب أيّ باحثٍ متعمّقٍ ليُدرك تصوّر الإسلام الكليّ الذي يَصدر عنه في كلّ تعاليمه وتشريعاته ومعاملاته» انتهى.

وهذه هي القضية المنهجية الأساسية لإدراك محاسن الإسلام، وبدونها فلا يمكن أن تُفهَم محاسن تشريعات الإسلام.

(القضية المنهجية الثانية)
فهم حقيقة التعبد في الإسلام

إنّ إدراك محاسن الإسلام لا يتمّ إلا بفَهم حقيقةِ التعبّد لله ﷻ، ولا تُفهم هذه الحقيقة إلا بالإدراك العميق لنصوص الكتاب والسُّنَّة الواردة في ذلك، أو بالنظر في كلام علماء المسلمين الذين اعتنوا بإبراز تلك الحقيقة بعد تتبعهم لنصوص الوحيين، ثم بالعمل على ضوء هذه الحقيقة دون الاكتفاء بالفهم النظري.

إنّ النظرَ إلى التعبد في الإسلامِ على أنّه ممارساتٌ وطقوسٌ دون خضوع القلب وتذلّله وحبه للمعبود، أو على أنه خوفٌ ورهبةٌ وفزع ورعب دون حب ورجاء، أو على أنه حب وفناء وعشق دون هيبة وخضوع وخوف من المعبود، كلّ هذا لا يؤدي إلى الفَهمِ الحقيقي لقضية التعبد في الإسلام.

إن للعبودية في الإسلام جمالاً يوقِف الإنسان على

شاطئ الكون مندهشا بأنوار الحقائق الكبرى التي تنفتح له، وإن عدم تذوق جمالية التعبد والخضوع والمحبة لله سبحانه لمن أكبر أسباب التأثر بالشبهات المثارة ضد وجوده وكماله سبحانه، ومِن ثم الوصول إلى الإلحاد والإنكار.

وهاهنا تجربة فريدة في هذا المجال لعالِم فريدٍ كاسمه، وهو الشيخ: فريد الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «جماليّة الدين» استعرض فيها مراحل فهمه للتدين والتعبد، وكيف أنها بدأت بالتصور المختصر، ثم انتقل إلى إدراك بعض المفاهيم الحركية الإسلامية والدفاعِ عنها، ومع ذلك يقول إنّه لم يصل إلى اللذة الحقيقة للإيمانَ حتى أوقفه أحد مشايخه وأساتذته على حقيقة معنى الإله والتألّه، يقول: «بدأت المراجعة في حياتي كليّة، واكتشفتُ حقيقة أن هناك شيئاً اسمه (حلاوة الإيمان)، ذوقاً لا تصوراً، وحقيقة لا تخيُّلاً! ثم بدأتُ أعود إلى القرآن، فوجدتُ أني كنتُ بعيداً جدّاً عن بشاشته وجماله، وبدأتُ أعود إلى السُّنَّة، فوجدتُ أني كنتُ أجهلَ الناسِ بأخلاق محمد عليه الصلاة والسلام، وبدأتُ أراجع ما قرأتُه عن العقيدة، فوجدتُ صفحات مشرقة مما كتب السلف الصالح قد مررتُ عليها مرور الأعمى ـ لا مرور الكرام ـ بسبب ما غطّى بصري من فهوم سابقة، حتى كأني لم أقرأ قط!

قلت: لم تكن مفاجأتي علمية بقدر ما كانت وجدانية،

لقد كنتُ أقرأ عبارات (المحبة والشوق والخوف والرجاء) ولكن دون أن أجد لها شيئاً من نبض الحياة بقلبي»[١].

لقد بيَّن د. فريد رَحِمَهُ اللهُ في كلامه بأنه لا يتّهم المفاهيم التي كان عليها سابقاً، وإنما يقول: إن ظروف التلقي كانت سيئة للغاية، ولكيلا يكون الأمر غامضاً، فسأنقل لكم كلامه في شرح مفهوم الإلٰه والتأله والتعبُّد، يقول:

«كلمة (إلٰه) في أصل استعمالها اللُّغوي كلمة قلبية وجدانية، أعني أنها لفظ من الألفاظ الدالة على أحوال القلب، كالحب والبغض والفرح والحزن والأسى والشوق والرغبة. . . إلخ.

أصلُها قول العرب: (أَلِه الفَصِيلُ يألَهُ أَلَهاً) إذا ناح شوقاً إلى أمه. والفصيل: ابن الناقة إذا فُطِم وفُصِل عن الرضاعة، يُحبس في الخيمة وتُترك أمه في المرعى حتى إذا طال به الحال ذكر أمه وأخذه الشوق والحنين إليها وهو آنئذٍ حديث عهدٍ بالفطام، فناح وأرغى رُغاءً أشبه ما يكون بالبكاء، فيقولون: (أَلِه الفصيل)، فأمه إذن ههنا هي (إلٰهه) بالمعنى اللُّغوي؛ أي: ما يشُوقُه. ومنه قول الشاعر: أَلِهتُ إليها والرَّكائِبُ وُقَّفٌ»[٢].

---

(١) جمالية الدين، معارج القلب إلى حياة الروح، لفريد الأنصاري (ص٤٠).

(٢) المرجع السابق (ص٣٤).

ثم يقول: «وهكذا فأنت ترى أن مدار المادتين (أَلِهَ) و(وَلِه) هو على معانٍ قلبية ترجع في مجملها إلى التعلّقِ الوجداني والامتلاءِ بالحب، فيكونُ قولُ المؤمن: (لا إلٰه إلا الله) تعبيراً عمّا يجده في قلبه من تعلّقٍ بربه تعالى، أي لا محبوب إلّا الله، ولا مرهوب إلّا الله، ولا يملأ عليه عمارة قلبه إلّا قصدُ الله. إنه أشبه ما يكون بذلك الفصيل الصغير، الذي ناح شوقاً إلى أمِّه إذْ أَحَسَّ بألم الفراق ووحشة البُعد، إنّ المسلم إذْ يشهد ألّا إلٰه إلا الله، يُقرُّ شاهداً على قلبه أنّه لا يتعلّق إلّا بالله، رغبةً ورهبة وشوقاً ومحبةً. وتلك لَعَمري شهادة عظيمة وخطيرة؛ لأنها إقرارٌ واعترافٌ بشعور، لا يدري أحدٌ مصداق ما فيه من الصدق إلا الله، ثم الشاهد نفسه. ومعاني القلب لا تُحدّ بعبارات، ولا تحصرها إشارات. ومن هنا كانت شهادة (ألّا إلٰه إلا الله) من اللطافة بمكان، بحيث لا تُدرك على تمام حقيقتها إلا ذوقاً!»[1].

ثم ينقل عن ابن القيم رحمه الله تعالى، كلاماً في المحبة عجيباً عظيماً، يقول:

«فلو بَطَلَت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطّلت منازل السير إلى الله؛ فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه،

---

(١) المرجع السابق (ص٣٥، ٣٦).

ونسبتُها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام؛ فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله، فمن لا محبة له لا إسلام له البتة، بل هي حقيقة شهادة (ألّا إلٰه إلا الله)، فإن الإلٰه هو الذي يألَهُه العباد حباً وذلاً، وخوفاً ورجاءً، وتعظيماً وطاعةً له، بمعنى (مألوه)، وهو الذي تألهه القلوب، أي تحبه وتذل له...»[1]. إلى أخر كلامه رحمه الله تعالى.

والمقصود من هذه القضية أن الإسلام لا يُفهم إلا إذا فُهِمت حقيقة التعبد فيه، وفُهِم الموقف أو الشعور أو الاعتقاد الذي يصاحب الإنسان تُجاه ربِّه إذا أدَّى العبادات التي شرعها الله ﷻ، ولذلك يقول العزّ بن عبد السلام في قواعده: «المقصود من العبادات كلِّها إجلال الإلٰه وتعظيمه ومهابته»[2].

فهذا تصورٌ إذا أدركه الإنسان وعرفه بشكل جيد، فإنه سيقف على صورةٍ معرفيةٍ لمحاسن الإسلام فيها أسمى معاني الجمال القلبي، ومع ذلك فهي لا تُغني عن التذوّق العملي الحقيقي لهذا الجمال، فإن الخبر ليس كالمعاينة، وإن للإسلامِ طبيعةً خاصّةً تختلف عن أي فكرة نظرية يعتقد

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٦).

(٢) قواعد الأحكام في إصلاح الأنام (٢/ ١٢٥).

بصحتها الناس، فإن من يؤدّي عبادة الله على الوجه الذي أراد، ويحسن في ذلك، مع علم وفهمٍ، فإن الله يهبه من جمال الحياة وحُسن المعرفة ومن نور القلب ومن سعادة الروح ما لا يمكن أن يُعبِّر عنه بكلام يكشف ما يجده كما قال من قال من العُبَّاد: «إنا نجد من اللذة والسعادة ما لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

(القضية المنهجية الثالثة)

محاسن الإسلام في براهينه

إنّ من أهمِّ ما يوقِفُ الناظر المتأمل على محاسن الإسلام وجماله وبهائه وتميّزه؛ هو النظر في البراهين المثبتة لصحته ومقارنتها ببراهين أي فكرة أخرى على وجه الأرض.

إن دين الإسلام قد جاء مبرهَناً على صحّة كلِّ أصولِه ببراهين قوية متعددة متنوعة، وهذا ما لا تجده في أي دينٍ آخر، ولا في أيّ توجهٍ أو تيّارٍ أو مذهبٍ أو طائفة.

فاسلك ما شئت من سبل البحث عن براهين صحة سائر الأديان وانظر إلى أصولها ومدى استقامة الدليل على إثباتها، ثم اعمل مثل ذلك في الإسلام فلن تجد أي عناء في الحكم بترجيح الإسلام على ماسواه.

وإذا أردنا أن نحدد قضية من أصول القضايا الدينية لتكون مثالاً للكلام السابق، فلننظر إلى قضية إثبات **صحة**

الكتب السماوية، ففي الإسلام نجد أن البراهين التي يُثبِت بها علماء المسلمين صحة نسبة القرآن ـ من جهة البلاغ ـ إلى النبي ﷺ، وصحة نسبته ـ من جهة المصدر ـ إلى الله تعالى تفوق الحصر وتُعيي العادّين، بل إنك تجد في النوع الواحد من الأدلة الـمُثبتة لصحة القرآن مؤلفات كثيرة وتحريرات بديعة وبراهين قاطعة، مثل ما كتبه العلماء المتقدمون في باب إعجاز القرآن كالخطابي والجرجاني والباقلاني وغيرهم كثير، بل لو لم يكن في ذلك إلا كتاب النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز لكفى، مع العلم بأن باب الإعجاز القرآني ليس إلا باباً واحداً من أبواب الاستدلال على صحة القرآن الكريم، وكذلك الأمر في المؤلفات التي كُتبت في حفظه وجمعه وتواتره وقُرّائه ونَقَلته. وإذا قارنت ذلك بأشهر كتاب سماوي آخر، وهو ما يُعرَف بالكتاب المقدس فستجد مفارقة عظيمة في إثبات النص الأصلي وحفظه.

وكذلك لو انتقلت إلى الإطار اللاديني فإنك إذا نظرت إلى البراهينِ التي يستدلون بها على صحة أصولهم فستجد إفْلاساً عجيباً؛ فإن غاية ما لديهم في باب الإثباتِ نظرياتٌ مختلفةٌ متضاربةٌ لا تكادُ تَثبُت على شيءٍ محدد، وجُمهور عملهم إنما هو متوجه إلى باب النفيِ وهدم معتقدات الآخرين، ببث الشبهات والإشكالات والاعتراضات، وأما المنظومةُ الإثباتيةُ فهي هشّة، وكثيرٌ من الملحدين أصلاً ليس

لديهم إثبات، بل غاية ما لديهم النفي، فهم يتغذّون على الشبهات، ودينهم إذا لم يأكل من رِمم الشبهات فإنه لا يمكن أن يكون شيئاً مذكوراً.

والحاصل: أن هذه القضية المنهجية من أبرز محاسن الإسلام الكبرى التي تُثبِت صحته، وإذا ثبتت صحته فيمكننا أن نثبت محاسنه التفصيلية من نصوصه وأخباره.

(القضية المنهجية الرابعة)
وضوح عقيدة الإسلام في الخالق

لا يوجد تراثٌ لأمةٍ من الأمم المتديّنة فيه تعظيمٌ للإله الخالق سبحانه وتنزيهٌ له عن النقائص وعمّا لا ينبغي أن يكون عليه، كما يوجد في القرآن الكريم وفيما صحّ عن النبي محمد ﷺ من الأحاديث.

ولذلك؛ فإن **الإسلام قد تميَّزَ على سائر الديانات بوضوح العقيدة في (الإلٰه)** من جهة الكمالات المتعلقة به، ولذا فإن العقل لا يجد تكلفاً في قبول الاعتقاد الإسلامي في الله سبحانه، بخلاف الخرافات والأساطير الموجودة في تصوّرات كثيرٍ من البشر تُجاه الإلٰه، وهذه القضية من أظهر القضايا في دين الإسلام، والاستدلال عليها لا يحتاج إلى كبير عناء، فالقرآن من أوله إلى آخره تمجيدٌ وتعظيمٌ وتنزيهٌ لله ﷻ، والسورة التي أخبر النبيّ ﷺ أنها أعظمُ سورةٍ

في القرآن هي السورة التي تبدأ بحمد الله والاعتراف بأنه رب العالمين، وأنه مالك يوم الدين، وتبيّن العلاقة بين المخلوق والخالق بالتعظيم الذي ينبغي للخالق، بأنه لا يُعبد إلا هو، ولا يُستعان إلا به، فهذه أعظم سورة.

وكذلك أعظم آية في القرآن، كلُّها متعلقةٌ بالإله من أولها إلى آخرها، وهي آية الكرسي، ولا يوجد عندَ أمّةٍ من الأمم المتديّنة تعظيمٌ للإله بمثل ما في آية الكرسي.

ثم إنه قد صح عن النبي ﷺ: «**أن في القرآن سورة تعدل ثلث القرآن**»، وهي سورة الإخلاص، وإذا تأمّلتَ فيها وجدت أن جميع السورة إنما هي تعظيمٌ وتنزيهٌ لله ﷻ.

بينما إذا نظرتَ فيما جاء عن الخالق في سائر الأديان فلن تحتاج إلى كبير جهد لتدرك الفارق بين الإسلام وبين غيره، بل إن المقارنةَ بين الإسلام وغيره في هذا الباب ظالمةٌ.

فإذا كانت اليهودية والنصرانية ـ التي هي أحظى الديانات بتراث الأنبياء بعد الإسلام ـ قد وصفت الإلٰه ونسبت إليه ما لا يليق به فالنقص في غيرها أولى وأحرى.

ففي تراث اليهود إخبار عن الله بندمه على بعض الأفعال، وبصراعه مع يعقوب عليه السلام ـ تعالى الله ـ وبعجزه عن معرفة مكان آدم عليه السلام بعد أن أكل من الشجرة ثم اختبأ.

وبالنسبة للنصارى فإنّ غموضَ فكرةِ الإله والتكلّفَ الموجودَ فيها يحتاجُ إلى عناءٍ شديدٍ ليُدرَك ويُتصوَّر، فضلاً عن تأليههم المسيح عليه السلام مع اعترافهم بأنه نشأ في رحم أمه عليها السلام وادعائهم أنه صُلِب، ومهما كانت المبررات؛ فكيف يليق بالإله العظيم أن يُصلَب على عمود ويستنجد بأصحابه كما يقولون!

وفي الديانات غير الإبراهيمية: إذا نظرتَ مثلاً إلى البوذية والهندوسية والزرادشتية والكونفوشيوسية وغيرها من الديانات، ستجد البونَ الشاسعَ الهائلَ بين التصور الإسلامي النظيف المعظِّم للإله وبين تصورات الوثنية في تعدّدِ الآلهة أو الغموضِ في فكرة الإله.

وكما قال محمد مزروعة: «إذا أردت أن تعرف صلاحية الدين عند قوم فانظر أولاً إلى عقيدتهم في الله»[1].

ومن جمال وكمال وعظمة التصور الإسلامي عن الله سبحانه وتعالى أنه لا يقتصر على مجرد الوصف الكامل، بل هذا الوصف يقتضي التعبدَ والخضوعَ والذلَّ لله سبحانه وتعالى. وفي ذلك يقول فريد الأنصاري رحمه الله: «فالربوبية إذن ـ لمن عرفها حقاً وصدقاً ـ جالبة للمحبة؛ لأنه إذا كانت الإلٰهية ـ وهي عقيدة المحبة وما تفرع عنها خوفاً ورجاءً كما أصّلنا ـ مبنيةً على الربوبية فمعنى

---

(١) الدين وحاجة الإنسان إليه، محمد مزروعة (ص٣٤٥).

ذلك أنّ الربوبيةَ ذاتُ خواصٍّ تجلب إليها القلوبَ فتألَهُهَا!»[1].

إذن فهذا الاعتقادُ الإسلاميُّ العظيمُ في الله ﷻ ـ على وضوحه وجلاله وجماله ـ فإنه يزداد جمالاً على ذلك باقتضائه التعبدَ لهذا الإلٰه ﷻ.

ومن المعلوم عند علماء الاعتقاد الإسلامي أنّ من أهم الأدلة القرآنية في الرد على المشركين الاستدلال بتوحيد الربوبية وبصفات الله ﷻ وكماله على توحيد الإلٰهية واستحقاق الله له.

ونتيجة لما سبق من جمال هذه العقيدة الإسلامية فإن هذا الأمر ولّد عند المسلمين ارتياحاً كبيراً في تصورهم عن الله ﷻ، فهُم لا يُواجهون التحديات في أصل اعتقادهم، ولذلك أيضاً نجد أن مثيري الشبهات والإشكالات في الغالب يُوجّهون سهامهم إلى أحكام عملية فرعية في الشريعة الإسلامية، ولا يتوجّهون إلى أصل تصوّر المسلمين واعتقادهم في الله تعالى؛ لأنه تصورٌ لا مدخل للطعن ولا للتشكيك فيه، وهو تصورٌ موافِقٌ للعقل ولمقتضيات الفطرة والنفس الإنسانية، وإذا اتّضحت العقيدة في الله ﷻ فإنّ ما وراء ذلك من أمور الاعتقاد سهلٌ واضحٌ بيّنٌ يسير، بخلاف

(١) جمالية الدين، معارج القلب إلى حياة الروح، لفريد الأنصاري (ص٤٥).

ما لو كان الأصل غيرَ واضح، فإنَّ تفاصيلَ الاعتقاد الأخرى سيكون فيها إشكال.

فمثلاً الإيمانُ بالمعجزاتِ هو فرعٌ عن الإيمان بالله ﷻ القدير العليم الحكيم مسبّبِ الأسباب وخالقِ الكون وقوانين الكون، وكذلك الإيمان بأصل النبوة هو فرعٌ عن الإيمان بالله ﷻ الكامل العظيم العليم الحكيم.

فالإيمان بالله أصل الأصول، وهو على عظمته وخطورته ومركزيته فإن بيانه في الإسلام واضح قريب سهل جميل، والحمد لله الذي هدانا لهذا.

(القضية المنهجية الخامسة)
وجود النموذج العملي المطبق للحقائق النظرية

إن من محاسن الإسلام أنه دينٌ جاء بالمعرفة وبتطبيقها، وأوصى بالأخلاق وفرض الشرائع وقدم النموذج الذي التزمها وطبقها، وذلك كله متمثل في حياة الرسول ﷺ العملية وسيرته التي نجد فيها الامتثال التام، والالتزام الكامل لما أمر الله به في القرآن، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها عن النبيّ ﷺ: **«كان خُلُقُه القرآن»**[1].

إن وجود النموذج العملي المطبق لشرع الله تعالى، الملتزمِ بأوامره غاية الالتزام؛ لمن أهم ما يُسهّل ـ على النفوس ـ تطبيق الإسلام والالتزام به، ويُبعد ـ عنها ـ النظرة الأفلاطونية الخيالية. وإذا عاش الناس الإسلام

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦).

عملياً وفعّلوه في حياتهم السلوكية فسيشعرون بقيمته، وحلاوته، ويستغنون به، وسيدركون حق الإدراك معنى: محاسن الإسلام.

ولعل من الحكمة الإلٰهية في اختيار النبي من البشر تسهيلُ عملية الامتثال والاقتداء والتطبيق، فلو كان من غير البشر لقيل: إنّ مَن طبَّق تعاليم الله إنما هو كائن له خصائص مختلفة عن صفات البشر تعينه على هذا الامتثال وتسهله عليه.

وقد ابتلى اللهُ سبحانه نبيّه ﷺ بأنواع من الابتلاءات الشديدة؛ حتى يُدرك الناسُ أنَّ هذا الرجلَ الشريفَ العظيمَ ـ وإن اختاره الله ﷻ واصطفاه واجتباه بالنبوّة ـ إنما هو بشرٌ يعرِض له ما يعرِض للبشر من المرض والتعب والمصائب وغيرِ ذلك، ولم يمنعه ذلك من أن يكون أعبد الناس وأتقاهم لربه وأشدهم له خشية.

ولأجْل ذلك كلِّه؛ فإننا لا نجد شخصية في التاريخ قد اعتُني بأقوالِها وأفعالِها، وسُجّلتْ سيرتها ودقائقُ أحوالها كمثل ما اعتُنِي بذلك في حق النبيّ محمد ﷺ، بل لقد استحدث المسلمون ـ لأجل حفظ سيرته وأقواله وهديه، بل وحتى سكتاته ـ قانوناً عِلْمياً لا مثيل له في حفظ الأخبار والمرويّات، وهو علمُ

الحديث، إذ إن هذا العلم لم يُستَحدَث ولم يُبتَكَر إلّا لأجل المحافظة على سيرة الرسول ﷺ وهديه وأقواله من أن يدخُلها التغيير.

(القضية المنهجية السادسة)
مقارنة الإسلام بالجاهلية

إن من أهم ما يُبرِز محاسن الإسلام ويرسّخها في النفسِ: النظرُ إلى أحوالِ الجاهلية ـ سواء ما كان منها متقدماً على الإسلام أو متأخراً عن بدايته ـ ورؤية الجانب الإصلاحيِّ العظيمِ الذي جاء به الرسول ﷺ في مقابل ما كان منتشراً ومتجذراً في نفوس العرب من الناحية الاعتقادية والسلوكية ومن ناحية العادات والأعراف والتقاليد.

إننا لا نتحدث عن نتائج إصلاح عادي يقارب نتائج الحركات الإصلاحية القديمة والحديثة، بل نتحدث عن حالة استثنائية فريدة في التاريخ، عبّر عنها أحد أشهر المؤرخين في التاريخ الحديث (ول ديورانت) مع كونه لا

يؤمن برسالة النبي ﷺ، بل وقد أثار شيئاً من الطعونات والتشكيكات فيه، غير أن سطوة الحقيقة عليه أبت إلا أن تُخرج منه هذا الكلام وذلك في كتابه: قصة الحضارة، حيث قال: «وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثرٍ في الناس قلنا: إنّ محمداً كان أعظمَ عظماءِ التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعبٍ ألقت به في دياجيرِ الهمجيةِ حرارةُ الجوِّ وجدبُ الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرضِ نجاحاً لم يدانيه فيه أيُّ مصلحٍ آخرَ في التاريخ كلِّه، وقلّ أن نجدَ إنساناً غيرَه حقّق كلَّ ما كان يحلم به»(١).

أما أبو الحسن الندوي رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد تكلم عن المنهج الإصلاحي الذي جاء به النبي ﷺ بعد أن ذكر العصر الجاهلي، وأسهب طويلاً في الكلام عنه ثم قال: «لقد كان هذا الانقلابُ الذي أحدثه ﷺ في نفوس المسلمين وبواسطتهم في المجتمع الإنساني أغربَ ما في تاريخ البشر، وقد كان هذا الانقلابُ غريباً في كل شيء، كان غريباً في سرعته، وكان غريباً في عمقه، وكان غريباً في سعته وشموله، وكان غريباً في وضوحه وقربه إلى الفَهم،

(١) قصة الحضارة (١٣/ ٤٧).

فلم يكن غامضاً ككثيرٍ من الحوادث الخارقةِ للعادة، ولم يكن لغزاً من الألغاز»[١].

وقد وقفتُ مؤخراً على كتاب: «مقاصد القرآن من تشريع الأحكام» للمؤلِّف الدكتور عبد الكريم حامدي، اعتنى فيه بإبراز الجوانب الإصلاحية التي جاء بها القرآن والتي أحدث بها التغيير الهائل في المجتمع، مثاله: مقصد القرآن في تحقيق الصلاح الفردي، كإصلاح العقل والاعتقاد والتفكير والنفس والجسم، ومقصد القرآن في تحقيق الإصلاح الاجتماعي، كالإصلاح العائلي ونظام الزواج والزوجية والطلاق، والإصلاح المالي ونظام الكسب والمحافظة على المال، والإصلاح العقابي، والإصلاح السياسي... إلخ من الأمور التي ذكرها في الجوانب الإصلاحية التي جاء بها الرسول ﷺ.

ومن لطيف ما جاء في ذلك أيضاً ما كتبه محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ اللهُ في مقدمة كتابه «نظراتٌ في الإسلام» بعد أن ذكر فتوحات الاسكندر وتجربة الاستعمار ثم قارن ذلك برسالة الإسلام قال: «أما رسالة الإسلام فإنها حين بسطت جناحيها في أقل من قرن على نصف المعمور، كانت كأنما أنشأته

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (ص٨٥).

خلقاً آخر، لقد بدّلته من أوطانه المتفرقة وطناً واحداً، ومن قوانينه المختلفة قانوناً واحداً، ومن آلهته المتعددة إلٰهاً واحداً، لقد نفَذت إلى جوهر نفسه فحولته تحويلاً، وبدّلت أسلوب تفكيره تبديلاً، بل عمدت إلى لغته فأضافت لغة القرآن لساناً إلى جانب لسانه، وكثيراً ما أنسته لسانه الأصيل، وجعلت لسان الإسلام هو لسانه الوحيد، ثم هي لا تزال في كل عصر تتلقّى معاول الهدم من أعدائها، فتكسر هذه الصدمات على صخرتها، وهي قائمة تتحدى الدهر، وتنتقل من نصر إلى نصر.

فلْيُحاول الباحثون ما شاؤوا أن يعرفوا مصدر هذه القوة الغلّابة، وهذا الانتصار الباهر.

إنّ هذا النجاح ليس مردُّه في نظرنا إلى سببٍ واحدٍ من الأسباب، ولا إلى فضيلةٍ واحدةٍ من الفضائل، لقد تضافرت عليه شخصيةُ الداعي، ومنهاجُ دعوته، وشخصيةُ الأمة التي تلقّت تلك الدعوة، وطريقةُ الدعوة نفسها، ومِن وراءِ ذلك كلِّه كلاءةُ الله ورعايتُه لهذه الرسالة حتى بلغت كمالها»[1]. ثم ذكر بعد ذلك ما يتعلق بصاحب الرسالة، ثم ما يتعلق بالرسالة نفسها، ثم انتقل إلى التشريع الإسلامي.

---

(١) نظراتٌ في الإسلام، لمحمد عبد الله دراز (ص٦).

وعلى صعيد مقارنة الإسلام بشيء من الجاهلية الحديثة فإننا إذا نظرنا إلى العلم الطبيعي ومكتشفاته الهائلة التي جعلت كثيراً من المغالين فيه يعدّونه المنافس الأوحد للأديان، بل المتغلب عليها، ويفخرون بأنه أصلح أحوال البشرية وتقدّم بها عمّا كانت عليه قبل ذلك، ولا يفتؤون من ذكر الحالة التطورية المعاصرة التي انتقلت إليها البشريةُ بعيداً عن أودية القرون الوسطى السحيقة.

ومع ذلك؛ فإننا عند التدقيق نجد أن هذه النهضة العلمية الطبيعية إنما هي نهضة جزئيةٌ متعلقة بمجالٍ معينٍ، وهو المجال المادّي، فهي نهضةٌ علميةٌ ماديةٌ بحتة، متعلقةٌ بما يخدم الإنسان في حدود عيشه في هذه الحياة من جهة الرفاهية الحسية فقط، ولكن ليس لها أثرٌ إيجابي على الإنسان من جهة قِيَمه وأخلاقه، ولا من جهة شؤونه الاجتماعية والأسرية، بل ولا من جهة الإجابة عن أسئلته الغائية الكبرى، فهذا كله بعيدٌ كل البعد عن النهضة العلمية الحديثة وآثارِها، بل إنها ساهمت بشكل أو بآخر في الانحطاط البشري في الجوانب المتعلقة بالأخلاق والقيم والروح والغاية، ليس لأنها تؤدي بالضرورة إلى الانحطاط بل بسبب عدم الاتزان الذي خلّفته في عقول الناس الذين لم يكونوا ينظرون إليها إلا بعين واحدة.

هذا؛ فضلاً عن أن المجال الذي ارتفعت فيه هذه

النهضة ـ وهو مجال الحس والمادة والتقدم البشري المحسوس ـ قد أتى بالكوارث على البشر، فما قَتْلُ الملايين في الحربين العالميتين التي لا يكاد يوجد لها نظير ولا مثال في تاريخ البشرية، وما الأجنّة التي شُوّهت جراء تلك الحروب إلّا بسبب ما أنتجه العلم الحديث من أسلحة الدمار الشامل حين صارت بأيدي أناس لم يراعوا نهضة الإنسان الأخلاقية كما راعوا النهضة المادية.

جاء في كتاب «انتحار الغرب» لريتشارد كوك وكريس سميث: «وتضاعف الشك في العلم على نحو ضخم، وتَعَمَّق نتيجةً لفظائع هيروشيما، . . . وقد أعطى تبريراً كافياً في أزمة صواريخ كوبا في عام ١٩٦٢م من أنّ الترسانات النووية كانت تستطيع أن تدمر الحضارة الإنسانية، وقد عبّر العلماء البارزون بصوت عالٍ عن شكوكهم، وقال آينشتاين بعد هيروشيما: لوكنتُ أعرِف أنهم كانوا سيعملون هذا لكنتُ عملتُ صانع أحذية»[١].

وذكر ريتشارد تارناس في كتابه «آلام العقل الغربي» شيئا من الانحراف القيمي المعاصر المرتبط بالعلم المادي[٢] قائلاً: «وقد ظل الترابط الوثيق بين البحث العلمي من جهة،

(١) انتحار الغرب، ريتشارد كوك وكريس سميث (ص١٤٠) باختصار.

(٢) آلام العقل الغربي (ص٤٣٤ ـ ٤٣٥) باختصار.

وسائر المؤسسات والهيئات السياسية العسكرية، والهيكلية التعاونية يكذِّب صورة العلم الذاتية التقليدية المتمثلة بالطهارة المحايدة، أما الإيمان بامتلاك العقل العِلمي للقدرة الفريدة على الوصول لحقيقة العالم، فقد بدا ـ ليس فقط ساذجاً معرفياً (أبستمولوجيا) ـ بل وخادماً، بوعي أو بدونه أغراضاً سياسية واقتصادية محددة، متيحاً في الغالب فُرَص تجنيد مقادير هائلة من الموارد المادية والفكرية لخدمة برامج الهيمنة الاجتماعية والبيئية. فالاستغلال العدائي الجشع للبيئة الطبيعية، التلوث الناجم عن التسلح النووي، التهديد بحصول كارثة كوكبية ـ ذلك كله لا ينطوي إلا على إدانة العلم وتجريمه، شجب العقل الإنساني بالذات، هذا العقل الذي بات على ما يبدو أسير لاعقلانية الإنسان المفضية حتماً إلى تدمير الذات.

إن الإيمان المتفائل بإمكانية الخروج من مآزق العالم عبر التقدم العلمي والهندسة الاجتماعية المجردين قد خاب. مرة أخرى، يقف الغرب على عتبة الكُفر لا بالدين هذه المرة بل بالعلم وبعقل الإنسان المستقل». انتهى مختصرا.

وقد تنبهت طائفة من الفلاسفة والعلماء إلى أن العلم الطبيعي لم يتعامل مع الإنسان بالنظرة التكاملية، وإنما اختزل مكوناته في نظرة مادية جزئية، ومِن أشهر المفكرين الذين اعتنوا بإبراز النقص في النظرة المادية للإنسان المفكر

المصري عبد الوهاب المسيري رحمه الله تعالى، وقد اعتنى بذلك عنايةً خاصة، ونثر نقوداته على النظرة المادية للإنسان في مواضع كثيرة من كتبه، بل وأفرد كتاباً في ذلك وهو «الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان».

وفي كتاب «آلام العقل الغربي» لريتشارد تاباس ذكر أن عدداً غير قليل من المراقبين للتطورات العلمية يشعرون بأنّ من شأن مثل هذه التطورات أن تكون نُذُرَ شؤمٍ ممهِّدةٍ لقلب القيم الإنسانية رأساً على عقب.

وخلاصةُ الأمرِ: أنّه إذا كان أنصار العلم الطبيعي المغالون فيه يقارنون بين حال البشرية بعد النهضة العلمية الحديثة وقبلها، فإنّ لنا تمام الحق أن نقارن بين حال البشرية ـ وخاصةً في المنطقة العربية ـ قبل بعثة النبي ﷺ وبعد بعثته، فالانتقالةُ الإصلاحيةُ الإسلامية الهائلة بفضائها الرحب وسَعتها وشموليّتها لا تُقارَن أبداً بالنهضة العلمية الحديثة التي اختزلت الإنسان في إطارٍ ماديٍّ ضيِّق. وشتان بين المقارنتين، بين مقارنةٍ تختزل الإنسان وتفكّكه، وبين مقارنةٍ تنظر إلى الإنسان نظرةً تكامليةً في كل جوانبها.

وأما التأخُّر الذي نحن فيه الآن فليس هو بسبب الالتزام بتعاليم الإسلام، وإنما سببه البعد عن هذه التعاليم، فليس في الإسلام ما يعارض النهضةَ بالعلم الطبيعي، ولا

التنميةَ التي يمكن أن ترتقي بالإنسان في العمارة والمادة، ولكننا نستمد من الإسلام المعايير الاخلاقية الحاكمة للحضارة المادية، ونستمد منه الجانب الروحي، والغائي، وننهض به بالشمولية والتكامل الذي يحتاجه الإنسان حتى لا ينهض مشوهاً على ساق واحدة.

(القضية المنهجية السابعة)
التجديد المتّزن

إن الاتزان والتوسط والاعتدال عند حَمَلة الأفكار التجديدية الهادمة لما قبلها يُعَدّ أمراً صعباً، فإن مواجهة الأفكار البالية التي يتعصب أصحابها لها مع بطلانها في نظر معارضيها وانتهاء صلاحية اعتناقها تدفع المجددين الناقمين على هذه الأوضاع السائدة إلى نوع من المغالاة في أفكارهم الجديدة، وإلى المبالغة في ردة الفعل تُجاه الأقوال والأفكار القديمة، حتى ولو كان شعار هذه الحركات التجديدية تسامحيّاً فإنك ترى في أحداث التاريخ ما يؤكد نسيان هذه الشعارات من قِبَل حَمَلة الأفكار التجديدة في خضم مواجهتهم لما ثاروا عليه من القديم.

ولكنك إذا نظرت إلى الإسلام ـ الذي جاء هادماً لأصول الجاهلية، مستبدلاً إياها بنظام تشريعي واعتقادي

شمولي تام ـ فإنك تجد فيه الاهتمام البالغ باعتدال أتباعه، وبتوجيههم للاتزان، وبإبعادهم عن المبالغة أو الزيادة في الأخذ به، بل في والتوعد والتشديد على من يخالف روح الاعتدال والاتزان كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «**إياكم والغلو**»[1] وقوله: «**ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه**»[2]، وقوله: «**هلك المتنطعون**»[3] وغير ذلك من النصوص الكثيرة.

ومما يزيد هذا الأمر وضوحاً أنه قد وقع ـ بالفعل ـ من بعض الفرحين برسالة الإسلام أول ما ظهرت، أن دفعهم هذا الفرح بالدين الجديد إلى مظاهر من السخط على الدنيا والبعد عنها وحرمان النفس من طيباتها مع الانقطاع للتعبد، وكان هذا بعد ظلمات الوثنية والشرك التي كانت سائدة في الجزيرة العربية.

فكان موقف الرسول ﷺ ـ الذي هو النموذج العملي المطبق لمراد الله في أرضه ـ تجاه هذا الحماس للفكرة الجديدة أنْ كَبَح جماحهم، وبث روح الاعتدال فيهم، ومن أظهر الأمثلة وأصحها على ذلك: حادثة الثلاثة الذين أراد أحدهم أن يعتزل النساء فلا يتزوّج، وقرر الآخر ألّا يأكل اللحم، وهَجر الثالثُ النوم على الفراش، كل ذلك بنية

(١) أخرجه النسائي (٣٠٢٣)، وابن ماجه (٣٠٢٩).
(٢) أخرجه البخاري (٣٩).
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

حسنة، وقصد تعبدي، وإرادة الزهد في الدنيا، وبدافعٍ حماسي لهذه العقيدة الإسلامية التي أنقذتهم من الجاهليةً المظلمة، فنجد أن النبيَّ ﷺ وقف أمام حماسهم بقوة مذكراً إياهم بالاعتدال والاتزان وذلك بالسير على سنته واتباعه، فقال: **«أما أنا فأُصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغِب عن سُنَّتي فليس مني»**[1].

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٦)، ومسلم (١٤٠١).

(القضية المنهجية الثامنة)

محاسن الإسلام في الأبواب التي يلج منها المشككون فيه

إذا تأمّلنا في الشبهات المثارة ضد تشريعات الإسلام وأحكامه (العملية) فإننا نجد أنها تمر ـ في الغالب ـ من ثلاثة أبواب: وهي الجهاد والمرأة والحدود، وإذا أمعناّ النظر في كل بابٍ من هذا الأبواب من جهة مقاصدها التشريعية وتفصيلات الأحكام المتعلقة بها فسنجد فيها من الحكمة والحسن والجمال ما يصح لنا أن نفخر به لا أن نواريه ونخجل منه.

ولنأخذ على سبيل المثال ما يتعلق بالجهاد والقتال في الإسلام، فمن المعلوم أنّ أبرز ما يُتّهم به الدين الإسلامي في هذا العصر أنه دينٌ وحشيّ، وأنه دينُ عنف وسفكٍ للدماء، لا دينَ رحمةٍ ورفقٍ وعدل، وأنه لا قوانينَ تضبطُ مُحارِبيه وتدفعُهم إلى التعامل الأخلاقي.

وفي الحقيقة فهذه نظرةٌ ظالمة منقوصة منقوضة، لا ترتبط بتعاليم الإسلام الأصليّة ولا بالنموذج العمليّ الذي كان عليه النبيّ ﷺ، فإن أصحاب هذه الدعاوى يقعون في أحد **إشكالين رئيسين:**

الأول: تحميل الإسلام وزر بعض المنتسبين إليه المخالفين لتعليماته.

الثاني: الاختزال والانتقاء غير الموضوعي من نصوص الوحيين ومن سيرة الرسول ﷺ المتعلقة بالجهاد.

وهؤلاء الطاعنون يؤسّسون نظرتهم التشكيكية ـ في الغالب ـ على بعض الممارسات القتاليّة المعاصرة التي يقوم بها أناس من المنتسبين إلى الإسلام، فيطعنون في الإسلام بناء على هذه الأفعال، بينما إذا أردتَ أن تُحاكم هؤلاء الطاعنين إلى ممارساتٍ قتاليّةٍ أخرى متعلقة بالجانب الإلحاديّ أو العلمانيّ أو النصرانيّ أو اليهوديّ فإنهم يرفضون تحميل الإلحاد أو العلمانية أو النصرانية أو اليهودية وزر الجرائم الحربية التي تصدر من بعض المنتسبين إلى هذه الأفكار والديانات، بحجّة أنّ هذه نماذجَ لا تمثلُ الثقافة العلمانية، ولا الفكر الإلحادي، ولا تسامح أديان الكتابيّين!

ونحن نقول: ليس كل من قاتل باسم الإسلام يمثل

الإسلام، وليس كل من رفع سلاحه منتسباً إلى الشريعة فإنه يمثلها حقاً، غير أن الفارق بين المسلمين وبين غيرهم في هذه القضية هو أنّ أول من يُنكر على من يخالف تعاليم الإسلام في القتال هم المسلمون أنفسهم، وأمّا المخالفات القتالية التي تقع من المنتسبين إلى الثقافات والأديان والأفكار الأخرى فإنك لا تجد من الإنكار والتشنيع وتبرئة تلك الأفكار من الممارسات الخاطئة التي يقوم بها بعض المنتسبين إليها بالقدر الذي نجده عند المسلمين، وإن كان فيهم من يُنصِف فيَنتقد.

ولا شك أن التقييم الحقيقي لقضية الجهاد في الإسلام إنما يكون عبر دراسة أصوله (الكتاب والسُّنَّة) والنظر في الممارسة الجهادية العملية التي قام بها النبي ﷺ، فهذا هو المعيار التام الكامل لتقييم قضية الجهاد في الإسلام، ثم تأتي التجارب القريبة من الزمن النبوي في العهد الراشدي لتمثل أكمل صور الاقتداء بالرسول ﷺ من دون ادعاء العصمة فيها.

وقد أُفرِدَت دراساتٌ في ذكر محاسن الإسلام في الحرب وأخلاق الحرب، منها: كتاب «أخلاق الحرب في السيرة النبوية» لحسن الطيلوش، وهو صادرٌ عن مكتبة الأمة، ومنها كتاب: «أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية» لناصر محمدي محمد جاد، وهو صادرٌ عن دار الميمان، وكِلا

الكتابين فيهما استعراضٌ لأخلاقيّات الحرب في سيرة الرسول ﷺ والقوانينِ الضابطة للمسلم.

وإذا أردنا أن نضرب بعض الأمثلة على هذه القوانين الضابطة لأخلاقيات الحرب في الإسلام فلننظر فيما جاء في احترام العهد مع الكفار والتغليظ في الاعتداء على المعاهَد بما لا نظير له.

فمع أن منع قتل المعاهد موجود في كثير من الثقافات والأديان والقوانين، لكن العجب أن يخاطب النبي ﷺ المسلمين في هذا الباب بأغلى وأعلى ما يطمحون إليه وهو الجنة، فيقول لهم: «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة**»[1]، يالله! ما هذا التغليظ الشديد والوعيد المخيف على قتل كافر؟! نعم، إنه العهد واحترام المواثيق في الإسلام حرباً وسلماً.

ومن أعجب ما جاء في احترام المواثيق في الحرب الإسلامية: ما جاء في «صحيح مسلم» أنّ حذيفة رضي الله عنه وهو في طريقه إلى المدينة تعرّض له ولأبيه المشركون وحبسوهم ثم أطلقوهم شريطة ألّا يُشاركوا في الحرب مع الرسول ﷺ، فوافقوا؛ لينجوا من الأسر، وهم في حالٍ أشبه ما تكون بالإكراه، فلمّا رجعوا إلى النبيّ ﷺ وجداه في التجهيز

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦).

لمعركة بدر، فلما أرادا أن يخرجا معه وأخبراه الخبر قال عليه الصلاة والسلام: «**انصرفا، نفي بعهدهم ونستعينُ الله عليهم**»[1] ولم يُخرِجهما معه، فهذا كان سبب عدم حضور حذيفة لمعركة بدر وهو من أصحاب رسول الله ﷺ المُقدَمين.

فالمحافظةُ على العهد مع كل هذه المعطيات لا تجدها إلا في الإسلام.

وهكذا الحال إذا نظرنا في البابين الآخرين (المرأة والحدود) فإننا نجد فيهما من المحاسن والحكم ما يغفل عنه الطاعنون أو يكتمونه.

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٧).

الخاتمة

إنّ أمر الإسلام أعظم من أن تُبَيَّن محاسنُه وخصائصُه في مثل هذه العُجالة، غير أني أسأل الله ﷻ أن يبارك في هذه المادة، وأن يغفر لي التقصير والزلل في النيّةِ والقولِ والعمل، وصلِّ اللَّهُمَّ ربنا وبارك وسلِّم على عبدك ورسولك وخير خلقك محمد بن عبد الله.